أسرة قضائية يمنية بالأندلس:

بنو زياد اللخميون

الدكتور محمد حقي/كلية الآداب ببني ملال

يقوم التنظيم الاجتماعي في الأندلس على القبلية والعشائرية مما يجعل الوراثة عنصرا أساسيا في استمراره، لذلك وجدنا كثيرا من الأسر تتوارث وظائف ومهام في قطاعات مختلفة من إدارة وجيش وقضاء وعلوم وحرف... على مدى أجيال. حتى إن الظاهرة لتدفعنا لنسميه تاريخ أسر. وكان القضاء من القطاعات التي عرفت الظاهرة بشكل قوي، وكان لليمن نصيبهم من ذلك. وقد برزت على مدى قرنين للوجود الإسلامي أسرة بني زياد اللخمية اليمنية، بحيث تعاقب على القضاء عدد مهم من أبنائها. فما هو أصل هذه الأسر؟ وكيف قامت وصعدت إلى السطح؟ ومن هم ممثلوها الذين تولوا القضاء؟ وماهي المناصب التي تولوها؟

1-أصل بني زياد

ينتمي بنو زياد إلى عشيرة لخم اليمنية، وينتسبون إلى زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشرة بن لوذان (...) بن لخم بن عدي[1]. وقد استقر زياد بقرطمة بكورة رية[2] جنوب شرق الأندلس. ويبدو أنه كان من جند الشام الذين رافقوا بلج بن بشر القشيري عند عبوره من سبتة إلى الأندلس عام 123هـ/742م، واستقر هناك وتصدر قومه.

لكن شهرة البيت وصعود نجمه بدأ يصعد إلى السطح مع زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي أبو عبد الله الملقب بشبطون[3]. وقد ولد بقرطبة وصاهر معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي

---

[1]- ابن حزم، جمهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص..423

[2]-نفسه.

[3]- نفسه والخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992، ص.95 وابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، مطبعة المدني، القاهرة، ج1، ص.182 وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، بيروت (1957 مقدمة)، ص.65 وعياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة، المحمدية، ج3، ص.116 والحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ص.218 والمقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1988، ج2، ص.45.

قاضي جماعة عبد الرحمن الداخل أحد علماء البلاد الأوائل[4]. وقد انتشر نسله وذاع عقبه بقرطمة وشذونة ورية الموطن الأصلي للعشيرة[5].

بدأ زياد شبطون طلب العلم بقرطبة على يد شيوخ منهم صهره معاوية بن صالح[6]. ثم رحل إلى الحج في عهد هشام الرضى (172هـ/789م-180هـ/197م)، وهناك في المدينة لقي مالك بن أنس وأخذ عنه وروى عنه الموطأ[7]، وقيل رحل مرتين[8]. وكان أول من أدخل فقه مالك إلى الأندلس. وفي ذلك يقول يحي بن يحي الليثي تلميذه وعميد المالكية في وقته: "زياد أول من أدخل الأندلس علم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والأحكام، وهو أول من عرف السنة في تحويل الأردية في الاستسقاء"[9]. وأول من أدخل الموطأ إلى الأندلس كاملا[10]. وله كتابان "الجامع" و"سماع زياد" الذي جمع فيه سماعه من مالك[11].

وتميز زياد بالحكمة والتعقل والعلم، وكان أهل المدينة يلقبونه بفقيه الأندلس[12]. وغلبت عليه التقوى والورع، لذلك كان هشام يقربه ويستشيره ويكلفه بتوزيع صدقاته، وألح عليه في تولي القضاء، لكنه رفض وخرج من قرطبة هربا منه[13].

---

[4]- الخشني، أخبار، ص.95 والمقري، المصدر السابق، ج2، ص..45

[5]- ابن حزم، جمهرة، ص..423

[6]- الخشني، أخبار، ص.95 والمقري، المصدر السابق، ج2، ص..45

[7]- نفسه ونفسه وابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، 183 وابن القوطية، المصدر السابق، ص.65 وعياض، المصدر السابق، ج3، ص. 116.

[8]- عياض، ج3، ص..117

[9]- نفسه، ص.117 والحميدي، المصدر السابق، ص.218-219 والمقري، المصدر السابق، ج2، ص.46.

[10]- المقري، المصدر السابق، ج2، ص.46.

[11]- نفسه، ص.116 و121 والخشني، أخبار، ص..95

[12]- عياض، ج3، ص.117 والحميدي، المصدر السابق، ص.218-219.

[13]- نفسه، ص.118-119 ونفسه، ص.219 والخشني، أخبار، ص.95 و97 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.183 والمقري، المصدر السابق، ج2، ص.45.

واختلف في تاريخ وفاته، فابن الفرضي يحدده في 204هـ/819م، سنتين قبل وفاة الحكم[14]، ويقدم الخشني سنتي 192 و194هـ[15]، وعياض سنين 193 و194 و199 هـ[16]، والحميدي 193 و199 و204 هـ[17]، والمقري 204 و193 و194 و199 هـ مع ترجيح الأول[18]. وبمقارنة التواريخ ومدى قرب المؤرخ من عصر الشخصية والقرينة المرفقة، يبدو أن عام 204هـ كما قدمها ابن الفرضي ورجحها المقري أكثر قبولا.

وقد "نجب ولده بقرطبة، وكان فيهم عدة من أهل الجلالة والفضل والقضاء والعلم والخير"[19].

2-2-بنو زياد في القضاء

حظي آل زياد بشهرة ومكانة عالية في العاصمة قرطبة والأندلس عامة بفضل جدهم شبطون، فتقاطرت على أفراد الأسرة العروض لتولي مناصب القضاء في حياته؛ وربما، باقتراح منه. ولم يستطيعوا الصمود أمام الإغراء كما فعل المؤسس، وتداولوا المنصب لفترة طويلة.

كان أول قضاتهم أحمد بن زياد بن عبد الرحمن شبطون الذي تولى قضاء الجماعة والصلاة للحكم الربضي قبل أن يعزله. وكان قد سمع بالأندلس من أبيه، ثم رحل بعد العزل إلى مصر حيث توفي عام 205هـ/821م[20]. ويظهر أنه اعتمد على سمعة أبيه قبل علمه لذلك؛ ربما، عزل، وقد يفهم ذلك أيضا من رحلته إلى مصر بعد العزل.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط تولى أخوه محمد بن زياد بن عبد الرحمن قضاء الجماعة والصلاة. ولا نعرف متى تولى المنصب بالضبط، ولكنه كان قاضيا عام 234هـ/850م عندما

---

[14]- ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.183.

[15]- الخشني، أخبار، ص..97

[16]- عياض، ج3، ص.122.

[17]- الحميدي، المصدر السابق، ص..219

[18]- المقري، المصدر السابق، ج2، ص..45

[19]- عياض، المصدر السابق، ج3، ص.122.

[20]- ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.33 وابن القوطية، المصدر السابق، ص.81 والضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب اللبناني، 1989، ص.225.

مات يحي بن يحي الليثي وأسند إليه تنفيذ وصيته[21]. واختلف حول تاريخ انتهاء ولايته، فالخشني ينقل أنه عزل في أواخر عهد عبد الرحمن بسبب قضية تجديف أخ عجب محظية الأمير لرفضه الحكم بقتله[22]، بينما يقول ابن حيان إنه استمر في منصبه حتى وفاته في بداية عهد الأمير محمد[23]. ويظهر أن الرأي الأول أرجح وأقرب إلى الصواب وقد يكون الأمر اختلط على ابن حيان لأن الأمير أبقاه على الصلاة دون القضاء حتى وفاته التي كانت بعد 240هـ بقليل[24]. ويبدو أنه لم يكن واسع العلم إذ لم يرحل واكتفى بالسماع من أهل الأندلس مثل معاوية بن صالح جده ويحي بن يحي الليثي، وهو ما يؤكده ابن حيان عندما يقول إنه "لم يكن حافظا"[25]. وقد غطى على ذلك بتاريخ وشهرة أبيه، وعلاقته الطيبة بزعيم المالكية في وقته يحي بن يحي الليثي الذي كان شيخه وإليه أسند وصيته عند موته كما ذكر أعلاه، وخاصة خصاله الشخصية التي امتدحت كثيرا. فابن حيان يقول عنه إنه من "العقلاء الحلماء الأدباء" و"حسن السيرة، محمود الولاية، رفيع البيت"[26]، أما الخشني فيقول إنه "كان من أهل الفضل والخير"[27].

وفي عهد الأمير محمد استدعي من شذونة أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي أخو الأولين وولي قضاء الجماعة[28]. ويطرح هذا الأمر إشكالا لم تساعدنا مصادرنا على حله، ولا ندري هل كان لزياد ابنان بنفس الاسم (أحمد)؟ وقد تولى القضاء حوالي 240هـ واستمر فيه حتى 250هـ/865م؛ حيث عزل أو استعفى بعد قضاء تسعة أعوام وأشهر في الولاية بسبب ابن له في شذونة أو خلاف مع الحاجب المتنفذ آنذاك هاشم بن عبد العزيز. وتولى المهمة "بخير سيرة وأجملها، وكان رجلا صالحا، صحيح المذهب، حسن السيرة"، كما كان صلبا مهاب المجلس

---

[21]- الخشني، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1952، ص.87 وابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ج2، وزارة الأوقاف، مصر، 1995، ص.178 والنباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ص.55.

[22]- قضاة الخشني، ص.90-91 والنباهي، ص.55-.56

[23]- ابن حيان، المصدر السابق، ج2، ص.210.

[24]- الحميدي، المصدر السابق، ص.56 والضبي، المصدر السابق، ج1، ص.121.

[25]- ابن حيان، المصدر السابق، ج2، ص.209-210.

[26]- نفسه.

[27]- الخشني، قضاة، ص..87

[28]- نفسه، ص.98-.99

وكل من تجاوز حدود الأدب داخل المجلس أو خارجه حبسه.[29] ومرة أخرى لا يقدم العلم في الاختيار وإنما هي الوراثة والخبرة والتمرس بالقضاء.

وفي عهد المنذر صعد إلى سدة القضاء وصلاة الجماعة زيادي آخر وهو عامر بن معاوية بن عبد السلام بن زياد اللخمي أبو معاوية بتوصية من بقي بن مخلد، وقد تولى طيلة عهد المنذر وبداية عهد الأمير عبد الله قبل أن يعزل[30]. ويبدو أن الرجل كان يحمل بعض العلم إذ خرج في رحلة طلب إلى القيروان ومصر، ولقي سحنون بن سعيد وأصبغ بن الفرج وغيرهما[31]. لكن يبدو أيضا أنه لم يحصل على درجة علمية عالية إذ تقول المصادر إنه "كان من أهل الرواية المتوسطين"[32]، ولم يكن بالضابط العارف لما روى، وفيه غفلة تخل بعمله[33]. وقد تولى قضاء بلده رية في عهد الأمير محمد، وكسب خبرة الحكم وساعده صلاحه على تولي قضاء الجماعة. وكانت وفاته عام 277هـ/891م[34].

في عهد الأمير عبد الله تولى قضاء الجماعة والصلاة أحمد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي أبو القاسم المعروف بالحبيب عام 291هـ/902م، واستمر حتى بداية عهد الناصر فعزل وولي ثانية واستمر فيه حتى وفاته عام 312هـ[35]. وكان تاجرا خبيرا يملك ثروة ضخمة يصرف جزءا منها في الصدقات والإطعام والإسعاف بالسلف لمن قصده بشرط الرهن، كما كان حسن الهيئة والشارة[36]. وكان قد تولى قبل القضاء الشورى في عهد الأمير محمد كما استخلفه ابن عمه عامر قاضي الجماعة في الاستسقاء في إحدى المناسبات[37].

---

[29]- نفسه، ص..98

[30]- نفسه، ص.130 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.248 وعياض، المصدر السابق، ج4، ص.249.

[31]- نفسه، ص..131

[32]- ابن عسكر، أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999، ص.220 والخشني، أخبار، ص.279.

[33]- تفسه وابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.249 وعياض، المصدر السابق، ج4، ص.250.

[34]- نفسه وعياض، المصدر السابق، ج4، ص.250 والخشني، أخبار، ص..280

[35]- ابن حيان، المقتبس، دار الآفاق الجديدة، البيضاء، 1990، ج3، ص.22 وابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج2، ص.152 و156 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص.39-40 والخشني، قضاة، ص.156 و160-162 وعياض، المصدر السابق، ج6، ص.194.

[36]- الخشني، قضاة، ص.149 وعياض، المصدر السابق، ج6، ص.189-190 وابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، 1978، ج1، ص.155.

[37]- نفسه ونفسه.

ولما تولى الحبيب القضاء أعطاه هيبة وحصانة وفرض على المشاورين تقديم رأيهم مكتوبا بخطوطهم، وهو أول من سن ذلك[38]. وجمع أقضيته في كتاب من عشرة أجزاء[39]. وتعاون مع الخليفة والوزراء وتدخل في أمور السياسة وصادق الحاجب بدر حتى اتهم بالركون للسلطان وإهانة القضاء[40]. لكن تعامله مع القضاء بالحزم الضروري وفرض الهيبة وإجبار المشاورين على كتابة استشاراتهم بخطوطهم والتأليف في القضاء؛ ربما، يظهر أنه قد دشن عصر القضاة الكبار في عصر الخلافة أمثال ابن أبي عيسى ومنذر بن سعيد وابن السليم وابن ذكوان وابن وافد. وهذا ما يؤكده عياض عندما يقول: "اتفق غير واحد من علماء الناس وعقلائهم أن الحبيب كان أكمل الناس أدبا، وأكثرهم عناية، وأقضاهم لحاجة بماله وجاهه، وأبرهم بالصديق، حسن السياسة، فقيها بالأمور، عارفا بالأحوال، طلوبا إذا طالب، صبورا على المقارعة، لم يزل في حداثته نبيها عند الكبراء"[41]. فهذه الصفات تلخص مجد آل زياد. وهذه القمة التي وصل إليها الحبيب إيذان؛ ربما، ببداية الانحدار.

وفي بداية عهد هشام المؤيد تولى قضاء طليطلة عبد السلام بن زياد بن أحمد اللخمي أبو عبد الملك حتى وفاته عام 371هـ/980م[42]. و"كان فصيحا بليغا مفوها طويل اللسان، عالما بالأنساب، حافظا للأخبار، حسن الخط ضابطا، وكان كثير النادرة، وله جمع في النسب"[43]. وهذه صفات العالم الموسوعة في الأدب والتاريخ والنسب، لكن العلم الذي نبغت فيه أسرته لا يظهر ضمن اهتماماته الرئيسية، مما ينبئ عن تراجع البيت. وقد يكون في توليه القضاء مجاملة لأسرته.

وفي عهد الفتنة تولى زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد بن عبد الرحمن شبطون أبو عبد الله قضاء بعض الكور دون أن يكون له علم كبير. وعاش ما بين 347هـ و430هـ/ 1038م[44].

خاتمة

---

[38]- نفسه ونفسه، ص..191

[39]- نفسه.

[40]- الخشني، قضاة، ص.192 ونفسه وابن سعيد، المصدر السابق، ج1، صز.155

[41]- ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص..331

[42]- نفسه، ص..331

[43]- نفسه، ص..332

[44]- ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955، ج1، ص..186

مثلت أسرة بني زياد نموذجا للأسر اليمنية التي اختارت طريق العلم لتشق طريقها في الحياة الأندلسية بمختلف وجوهها. وقد كان علم وجاه زياد بن عبد الرحمن تلميذ مالك رأسمال الأسرة الذي ظل أبناؤها على مدى أجيال وطيلة ما تبقى من عهد الأمويين يمتحون منه، فتولوا المناصب القضائية في قرطبة والكور وحتى دون ان يكون لهم ثقل علمي أو تكوين معمق خاصة في الفقه.

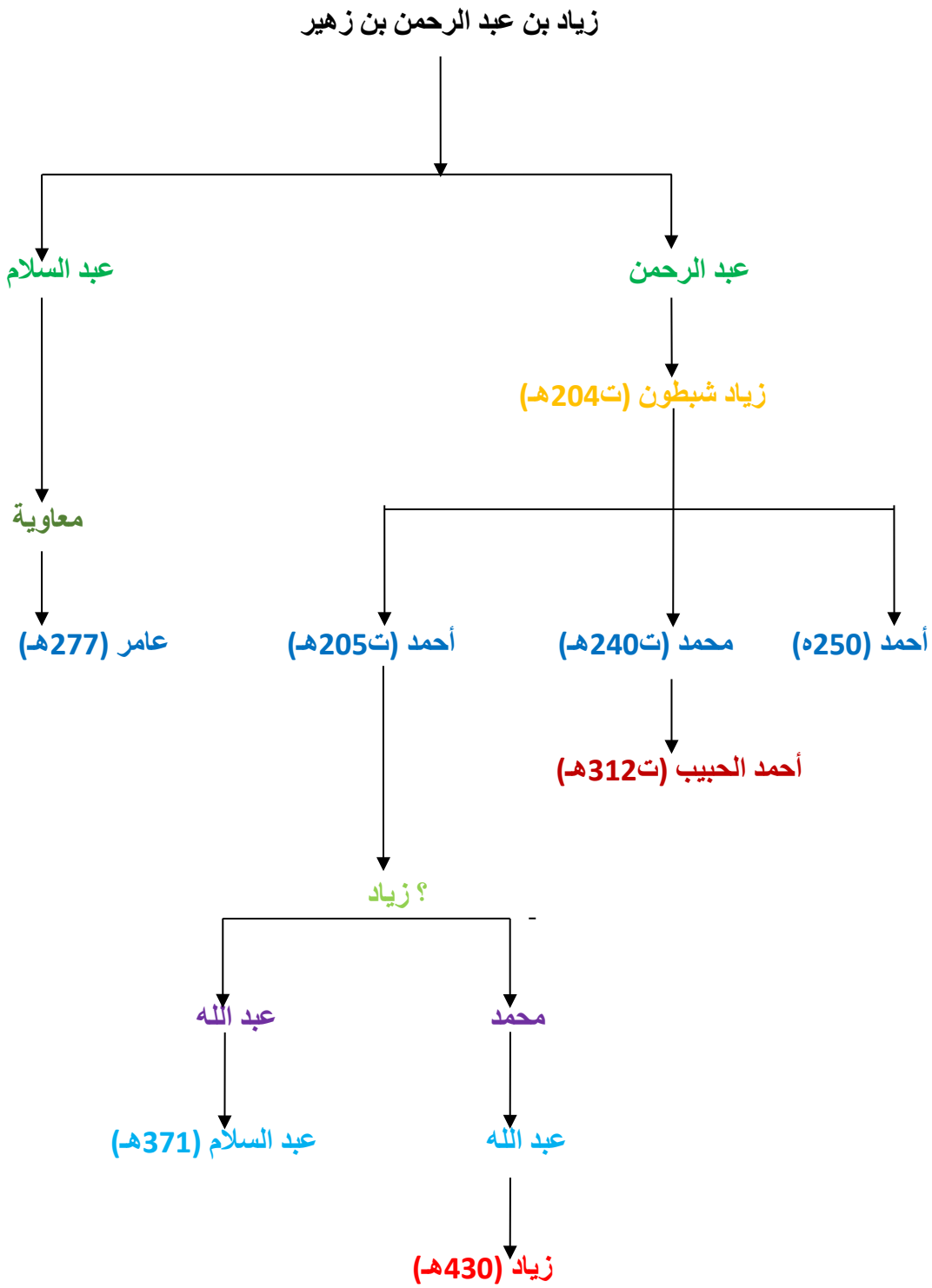

شجرة نسب أسرة آل زياد